مظاهر العصرنة في الأدب الموريتاني المعاصر
محاولة لفهم أبعاد القصيدة الموريتانية المعاصرة

أبوه ولد أعمر
قسم اللغة العربية وآدابها

المقدمة:

يعتبر التأليف في العلوم الإنسانية من أصعب فنون العمل العلمي خاصة إذا كان الغرض منه الإسهام بجهد إنساني يعطي مؤشرا يتعرف من خلاله الكثيرون على مظاهر شتى من التراث بذل فيه الأجداد أعمارهم على مر العصور وحرصوا عليه وعلى استمرار يته أكثر من حرصهم على النفس والنفيس.

ولعل الرؤيا تتضح أكثر كلما قرأنا بتمعن ما يحتويه هذا الكتاب من آثار لما قام به العلماء الشناقطة (الموريتانيون) من مجهودات علمية وأدبية، بذلوا كل طاقاتهم من أجلها.

ويأتي هذا العمل (مظاهر العصرنة في الأدب الموريتاني المعاصر) إسهاما في بلورة الرؤى والمفاهيم النقدية للشعر الموريتاني المعاصر، الذي اختار أصحابه تلك الأساليب وسيلة إلى التعبير عن فهم روح العصر ومستجداته المتنوعة.

وقد تناولنا فيه جزء مهما من التراث الموريتاني، الذي كان من أهم سمات النهضة العلمية التي شهدتها بلادنا خلال القرن المنصرم.

وذلك إبرازا للوجه الأدبي المشرق الذي تزين به المجتمع الموريتاني ولا يزال، في وقت كانت الزينة به لا تأخذ مضامين الأبهة، والرونق الاستيفائي لها في بعض البلدان العربية والإسلامية.

وما دفعنا إلى اختياره موضوعا لهذا العمل، تلك الجهودات الجبارة التي قدمها أجدادنا طوال حياتهم في سبيل المعرفة ونشرها، وبصفة خاصة التراث العربي الإسلامي، الذي كان لهم دور كبير في إحيائه، وليست المكانة التاريخية التي احتلتها بلاد شنقيط في نفوس المشارقة والمغاربة إلا مؤشرا على تلك المجهودات التي كانت الجدية والنشاط العلمي في حياتهم معبّرين عنها.

وفي تبويبنا لهذا العمل، قسمناه إلى ثلاثة محاور، تناولناها على النحو التالي:

❖ المحور الأول: وصف لمظاهر الحياة العامة، وأهم التطورات السياسية والاجتماعية.

❖ المحور الثاني: وصف لما عاناه الشعب الموريتاني خلال مرحلة الاستعمار الفرنسي، وأثرها في نفوس الشعراء الموريتانيين، يشتمل على نماذج شعرية لبعض الشعراء الموريتانيين المعاصرين.

❖ المحور الثالث: وصف للرحلات والتجارب التي مرّ بها بعض الشعراء الموريتانيين المعاصرين، وأوردنا لتلك الرحلات نماذج لبعض الشعراء الموريتانيين المعاصرين.

وأخير الخاتمة، والمصادر والمراجع، والمحتوى، أملين أن يكون هذا المجهود العلمي قد أعطي ما يستحق من عناية ودراسة علمية، كان للمجال النقدي فيها إسهام للتقييم، ومعيار فاصل بين الواقع وسبحات الخيال.

وصف لمظاهر الحياة العامة، وأهم التطورات السياسية والاجتماعية، يشتمل على عدة نماذج شعرية

لم تتوقف النهضة الأدبية والثقافية التي شهدتها (موريتانيا) في القرون الثلاثة الأخيرة، وإنما استمرت بشكل يتماشى وروح العصر الجديدة، فقد اتخذ الشعر الموريتاني في هذه الفترة أسلوبا متطورا ومناحي جديدة اقتضتها معطيات العصر..وإن كان للشعر القديم أثر كبير في نفوس المحدثين، مما جعلهم يميلون إليه ويعتمدون عليه أكثر من غيره، كمقياس لجودة إنتاجهم للشعر الحديث.

إن ميل الشعر العربي بصفة عامة والموريتاني بصفة خاصة إلى الموروث له عدة عوامل: ثقافية، وفنية، واجتماعية .. وإن كانت هذه العوامل في مجموعها تفسر لنا سر شيوع هذه الظاهرة في شعرنا المعاصر على نحو لم يعرفه تاريخ شعرنا من قبل[1].

وهذه الصبغة التي اصطبغ بها الشعر الموريتاني الحديث جعلته يواجه نوعا من التكلف في وصف مظاهر الحياة الجديدة، فالواقع البدوي القديم الذي عاشته أجيال قديمة يختلف كل الاختلاف عن الواقع الحضاري المعاصر، وهذا حتما سيجعل كثيرا من المحاولات المبكرة للعصرنة لا تحظى بقدر كبير من التوفيق.

---

[1] د.على عشري زايد: استدعاء شخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلام، ط:1، طرابلس، ص:17.

فقد ظن البعض * أن العصرنة هي وصف مشاهد العصر، وهي في الحقيقة فهم لروح العصر[1]*، ولعل هذا يلاحظ بصورة أكثر وضوحا في قصيدة الشاعر (المختار بن حامدون (ت: 1414هـ/ 1993م)[2]).

تلك القصيدة التي يصف فيها الشاعر الطائرة، وصفا ينبع من شاعرية تأثرت بماض تراثي بعيد عن محدثات العصر الصناعي الحديث، ولعل الصورة تتضح أكثر فى تتبعنا لقصيدة الشاعر التي يقول فيها[3]:

خفقـــان قلـــب العاشـــق الولهـــان مـــا منـــذ آن تســـمع الأذنـــان
أم هـــو زلـــزال بعيـــد مـــؤذن بالخســـف فـــي نـــاء مـــن البلـــدان

أم هـــو زأر الأســـد فـــي أجماتـــه أم هـــو صـــوت تـــأجج النيـــران
أم طـــائر طـــار الغـــداة تعلمـــت منـــه الطيـــابير حكمـــة الطيـــران

ومنها:

ولـــه لـــدى (تينـــدوف) وقفـــة ســـاعة بمنـــازل الأقيـــال مـــن (جاكـــان)
وحنـــا علـــى (أم القـــرين) جناحـــه أمـــات محمومـــا عليـــه حـــوان
ومضـــى مضـــاء الســـهم منهـــا حائمـــا فـــي مثـــل مـــا تحـــرك العينـــان

---

[1] مجلة الموقف الأدبي، العدد: 148 . آب (أغسطس)، 1983، دمشق، ص:45.

[2]- هو: المختار بن حامد، (ويعرف بالمختار بن حامدون)، شاعر معاصر، عمل كأستاذ للتاريخ سنة:1959 في المعهد الإسلامي بأبي تلميت، له مؤلفات تاريخية وجغرافية عديدة، أهمها: (تاريخ جغرافية موريتانيا الحديثة)، راجع: شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، ص: 615 .

[3] انظر: شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، ص:388.

حتـــى إذا أطـــار وكـــان مـــن (كنـــوال) مرمـــى ســـهم أو ســـهمان
ألقـــى علـــى دار المحطـــة نظـــرة مـــن تحتـــه فـــي أمعـــز الصـــوان
فـــدنا رويـــدا تحتهـــا متدليـــا فكـــأن يـــدلى بحـــب الســـوان

إلى قوله:

فـــإذا بـــه بعـــد التحـــرك ســـاكنا وإذا بـــــه بعـــــد التباعـــــد دان
وإذا بإخوتـــــه رقـــــود حولـــــه مثـــل الحـــدوج علـــى ذرى الحيتـــان
وإذا لخلائـــق محـــدقون بـــه فهـــم يلقـــــون بتحيـــــة وتهـــــا نـــــي
لـــو كـــان ينطـــق ظـــل مفتخـــرا علـــى ســـفن البخـــار وكـــل ذات دخـــان

والمتأمل في هذه القصيدة يجد فيها أكثر من مأخذ على الرغم من جمالية الإبداع فيها وطلاوة الألفاظ، وإن كانت في الحقيقة أعمق من أن تتبادر بعض العبارات الواردة فيها إلى الكثير من أبناء العصر خاصة الذين لم تسبق لهم خلفية عن الحياة البدوية .

فمن هذه المآخذ: تلك العبارات التي اضطر الشاعر إلى التصوير بها (زأر الأسد..تأجج النيران، حبل السوان..)، إلى غير ذلك من العبارات التي قد لا تتبادر لأذهان البعض إلا بعد البحث والتنقيب عنها في المعاجم اللغوية.

ولعل الشعراء الموريتانيين سادهم نوع من الانبهار بالحضارة الجديدة خلال مطلع (القرن العشرين)، فبد أو يترجمون كل ما جادت به محصلاتهم الأدبية، وإن كان المدلول أو الكلمة تبقى دون نقاوتها العصرية .

ذلك ما نستشفه عند البعض ممن كانت لهم محاولات مبكرة في هذا الصدد، ولنتتبع مثلا وصف (المذياع) للشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، حيث يقول[1]:

هل غادر المذياع من عجب، فقد ... أغناك عن كلف البريد ألواني
ياتيك بالأخبار ساعتها، فلا ... تحتاج قصد شواسع البلدان
فإذا صغيت فكل شخص حاضر ... وإذا نطقت حللت كل مكان
ما شئت من فن بمختلف اللغا ... ت إن شئت تسمع محكم القرآن
أو شئت من خطب وشعر رائق ... يسبي القلوب بمطرب الألحان
وانظر: لصنع الكهرباء فإنه ... من لطف صنع الله في الأكوان
إذا سهلت كل الصعاب، وأوهمت ... أن المحال بحيز الإمكان

ونفس الشيء تقريبا عند(محمد محمود بن الشيخ) في قصيدته التي يصف فيها السيارة، حيث يقول[2]:

إن لم تسر نحو الأحبة فوق ما ... دهماء تبتدر الميم أينما
لا تخشى ظمأ بها إن هجرت ... ترمي الصوى مرا بأربعة ظما
في عينيها بالليل درة غائص ... تخلو دياجر ليلها إن أظلما
فترد عيناها العيون حسوا سرا ... يا مقلتين بعيدتين من العمى
فالعين منها والسبيل مذلل ... كالبدر لو سلك المجرة في السما

---

[1] شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، ص:656.

[2] شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، ص:656.

ومنها:

فـــي صـــذره ضـــرم ومـــاء بـــارد ضـــدان فيـــه، فحـــرة بكليهمـــا
فـــالجمر لـــولا حـــره لـــم ينطـــف والمـــاء لـــولا بـــرده لتضـــرما

إلى قوله:

واصـبر علـى مضـض الفراق مـلاوم مـلاوة إن حـــنظلا ألفينـــه، أو علقمـــا

وصف لما عاناه الشعب الموريتاني خلال مرحلة الاستعمار الفرنسي، وما خلفه ذلك في نفوس الشعراء الموريتانيين.

ويلاحظ النضج والإيقاع الشعريين في الأدب الموريتاني كل ما تقدم المجتمع في فهم روح العصر، لا فهمه من الناحية الشكلية.. وهكذا فقد بدأت أقلام الشعراء الموريتانيين تثبت جدارتها أمام المستعمر، وأعلنت صوتها بشكل ثورة عارمة ضد الاستعمال في جميع مظاهره.

ونستهل تلك الثورة الفكرية والثقافية بالقطعة الشعرية التي تحمل عنوان (رسالة العجوز) للشاعر أحمدو بن عبد القادر (1360 هـ/ 1941م)، وتعتبر نتاج معاناة طويلة عاناها المواطن الموريتاني أثناء الاستعمار الفرنسي لموريتانيا، وما تلاه من ظلم وتشرد وقهر، واستنزاف خيرات، يقول الشاعر في قصيدته "رسالة العجوز"[1]:

---

[1]– مجلة الموقف الأدبي، (دمشق، اتحاد الكتاب العرب، العدد:148 . آب (أغسطس)، 1983، ص:46، 47.

مختـــار يـــا دخـــل الـــبلاد مختاريـــا بحـــر الســـنين
مـــاذا دهـــاك ؟ وأي شـــي ئ قلتـــــه للائمـــــين
نطـــق المـــدافع ضـــدنا فـــي صـــالح المســـتعمرين

إلى قوله:

قـــد كـــان لـــي ولـــد يســـمى المصـــطفى نجـــل الـــدمين
أرضـــعته لـــبن الأمومـــة للطفولـــة فـــي مهـــين
بـــالأمس للأمـــس القـــري ب نعـــاه عنـــدي المبلغـــون
إذ قيـــل إن الرصاصـــة ردتـــه فـــي كـــف المنـــون
يـــا أيهـــا الإنســـان مـــن أغـــراك بالمستضـــعفين؟
هـــم طيبـــون لأنهـــم ثـــاروا علـــى المســـتوطنين
وإذا رفضـــت أجـــابتني ونســـيت قـــولي كـــل حـــين
فـــأعلم بـــأني قـــد فقـــد ت المصـــطفى نجـــل الـــدمين
والـــدهر ســـوف يجيبنـــي والشـــعب لـــيس بمســـتكين

بهذه الصراحة وغيرها من التعابير التي لم يقتصر صيتها على النظام الحاكم آنذاك، فحسب بل تجاوزته لتعم كل أعوان المستعمرين وغيرهم من أعداء عروبة موريتانيا، وحريتها في ظل وحدتها الجغرافية التي ظل الآباء يحافظون عليها على مر التاريخ.

كما بذلت في سبيلها الدماء الرخيصة، واستشهد في سبيل عزتها وكرامتها قوافل الشهداء أمام جحافل الغزو الاستعمار الفرنسي لها، دفاعا عن وطنهم.. هذا الوطن الذي ظل روضة ينعم فيها أهله بالعزة والرخاء طوال العصور المتتالية. وقبيل

الهجمة الاستعمارية، وما أعقبها من أساليب القهر والظلم والاستبداد، وغير ذلك من مظاهر الإهانة والتمزق اللذين كان لهما تأثير عميق في نفوس الكثيرين من أبناء المقاومة المادية والمعنوية للتخلص من ذاك الواقع الحزين الذي ظل المواطن يعاني مرارته برهة من الزمن .

نستشف ذلك كله من قصيدة الشاعر (الشاب) محمد بن عبدي، حيث يقول:

يـا لهفتـي شـعبي عـك زمانـاهل قـد إني أراك تكابد الأحزانا
قضـــي بـــأن تعـــيش مـــذللا بـــين الســـجون معـــذبا ومهانـــا
إنـــي أراك كمـــن توقـــف دمـــه جريانـــه وطبيبـــه قـــد خانـــا

ومنها:

حطـــم ســـجون الظـــالمين كخطـــوة أولـــى وفجـــر فـــوقهم بركانـــا
ردد عبـــــارة (لا) لأي مغـــــالط مســـــتعمر مســـــتعبد أحيانـــــا

إلى قوله:

حكـــم كتـــاب الله واجعلـــه مســـلكا فيـــه الشـــورى والعـــدل زد إحســـانا
فيـــه المـــدافع والقنابيـــل والتقـــى وهـــو الـــذي قـــد حـــرر الإنســـانا

ولم يقتصر مثل هذا التعبير الذي يستنكر وجود المستعمر الفرنسي، ويحرض على مقاومته، بل القضاء على أتباعه، وكل من يمت إليه بصلة قبل وبعد الاستقلال.

لم يقتصر على فئة من الشعب دون أخرى، ولا بأسلوب دون آخر، بل عبروا بشتى الطرق والوسائل عن استهجانهم للأدوار الخيانية التي ما فتئ المستعمر

وأعوانه يحيكونها ضد المجتمع الموريتاني، وخاصة بعد مرحلة الاستقلال، مذكرين أولئك الذين يبيتون العداء للشعب الموريتاني، أو المساس بحريته ووحدته الترابية .

لن يتساهلوا مع أي معتد مهما كانت قوته، وهذا ما تطالعنا به قصيدة الشاعر الشعبي (محمد بن محمد بن على)، وذلك بما في هذا الأدب (الأدب الشعبي) من صراحة ميزته عن غيره من أنواع الأدب الأخرى. وهكذا فقد نظم الشاعر قصيدته باللهجة(الحسانية[1])، حيث جاءت معبرة عن لسان حال الشعب الموريتاني بصفة عامة، يقول الشاعر[2]:

---

[1] اللهجة الحسانية: هي أوسع اللهجات انتشارا في موريتانيا، وهي نسبة إلى قبائل بني حسان (العربية) التي دخلت البلاد في ق/16 م

[2] أخبار موريتانيا(نشرة إخبارية تصدر ها سفارة موريتانيا)، عدد: تشرين الثاني، (نوفمبر)،1982، دمشق، ص:47.

يـــل مـــتخمم موريتـــان ... بالكـــذب وبالغـــدر فالمـــان
اعلـم سـابك[1] سـعدك يشـيان ... بعلـــن امحـــدنك هـــان
موريتـــان مـــاه حيـــوان ... يمبـــاع ولاه ش أوخرثـــان
موريتـــان دولـــة وامتـــان ... شـعب أحـرار أصـلا متكـان
واصـل ينعـد إلـي عـدنان ... مـا فيـه امنـادم بـران
رجـل مـا ه يستخط لوطـان ... الـدون مـن لكصـان
متمسـك بـالله وليمـان ... مـاه ذاك الشـعب اللعـان
موريتـان شـعب نزيـه ... مـا يغـدر فالمـان أبديـه
فيـه النخـوة والـدين ... وفيـه المـروة واعـل ش بـان
بيظانـه ومـرت وكوريـه[2] ... سـيان والشـعب الشـان
سـيان والـدين امخاويـه ... الـدون مـن ولكصـان
ذ مـان كـاع امكثـر فيـه ... غيـر اعلـم عـن موريتـان
كـد الـل مـن دار الخيـر ... إراه ولاه متحـان
والـل زاد امـل يختيـر ... ش ثـان عنـد ش ثـان

---

[1] اعلم سابك (بكاف معقودة، وهي التي أصلها قافا)، وتكتب (كافا) يعلوها ثلاث نقاط، وهكذا في سائر ما يأتي من مثيلاتها.

[2] البيظان: كلمة جمع، مفردها: بيظاني، تطلق على الذين يتكلمون العربية من عرب أو زنوج تم اندماجهم في مجتمع البيظان .. مرت: امرأته، كوريه: لفظة تطلق على الذين لا يتحدثون باللغة العربية أو إحدى اللهجات المشتقة منها، انظر: مجلة العربي ،العدد:293، الكويت، أبريل، 1983، ص:115.

وعندما تحقق للشعب الموريتاني أكبر الآمال والأماني التي كان يناضل من أجلها والمتمثلة في استقلال البلاد سياسيا واقتصاديا وثقافيا، بدأ شعراؤه بما يشبه الثورة الإعلامية، مبدعين حينا ومبتكرين لأروع عبارات الفرح والابتهاج حينا آخر، وذلك بنوع من الحماس، يصوره لنا الشاعر (أحمدو ولد عبد القادر)، في قصيدته (فرحة العيد).

تلك القصيدة الرائعة التي قدمها هدية لأرواح الشهداء الذين استشهدوا خلال الغزو الاستعمار الفرنسي للبلاد سنة 1905، تحت قيادة (أكسفير كوبولاني)، وهي المرحلة التي عانى فيها الشعب الموريتاني التشريد، والترويع، ونهب الخيرات، وغير ذلك من أنواع الاضطهاد.. هذا ما عبر عنه الشاعر بقوله[1]:

فرحـــة العيـــد أيقظـــت ذكريـــاتي مـــن صـــميمي وحركـــت خطـــرات
حـــول مـــاض عشـــناه دمعـــا وحزنـــا وانتفضـــنا منـــه أتفـــاض الكمـــات
حـــول مـــاض يعطيـــك قصـــة شـــعب عبـــــق بـــــالفخر والمكرمـــــات

لقد شهدت موريتانيا كما أسلفنا نهضة واسعة النطاق شملت شتى الفنون والمعرفة، وذلك منذ مطلع القرن (18م)، إلى أوائل القرن (20م)، مما أعطى للشعراء الموريتانيين المحدثين دفعا استطاعوا من خلاله أن يتوجوا تلك المجهودات العلمية والأدبية التي ترك الآباء والأجداد بنهضة علمية وأدبية، على الخصوص في تأسيس (الرابطة الموريتانية للأداب).

[1] مجلة الموقف الأدبي، (دمشق، اتحاد الكتاب العرب، العدد:148 . آب (أغسطس)،1983، ص: 47.

تلك الرابطة التي تعتبر رمزا تنصهر في قالبه كل الأفكار والآراء، والخواطر الأدبية لتفتح المجال أمام ذوي المواهب، وذلك للإسهام في استمرارية تلك النهضة وتطويرها والتجديد في مضامينها بما يتماشى وروح العصر.

ولعل ميلاد هذه الرابطة كان أملا ينتظره الكثير من أبناء الشعب الموريتاني وخاصة الشباب والمثقفون، ذلك ما نستشفه من قصيدة (صدى الفكر) التي قالها الشاعر(أحمدو ولد عبد القادر) بمناسبة ميلاد هذه الرابطة[1]

بين خفق الرؤى وذوب الخيال ... واقتحام المنى عيون المحال
والأغاني المجناحات سكارى ... سابحات في مركب الآمال
نهض الوتر واليراع وقالا ... كلمات بيض الحروف الصقال
هل لهذا الوجود معنى إذا لم ... نتفهم هويتي ومجال
وأناشيد مزهري تتغذى ... من صدى أنتي وفرحة بال

ويتابع (ولد عبد القادر) قائلا:

هللي موريتان ما ذاك إلا ... ومضة من سراجك المتلال
هللي يا بلاد ما نحن إلا ... قطرة من معينك السلسال
أبشري صفقي لوثبة نبع ... ظل يسقي مواكب الأجيال
حاول الغرب حبسه ذات يوم ... عن مجاريه عبر هذى الرمال

إلى قوله:

[1] انظر: مجلة الفكر، تونس، السنة:23، العدد:2، نوفمبر 1977، ص:36،35.

فتعـــالي أقلامنـــا نحـــر العصـــر ودنيـــــا الأوان دنيـــــا المقـــــال
ريشـــــة الفـــــن بلســـــم وســـــلاح ودليـــــل يضـــــيء وعـــــي الرجـــــال
إنهـــــا عـــــالم الحقـــــائق يحيـــــا بـــــين خفـــــق الـــــرؤى وذوب الخيـــــا

وهكذا فقد عبر الشاعر عن شعور صوره في قالب تغمره البهجة والارتياح، كما يعبر عن انبهار تام بهذا الحدث الذي كان مذبذبا بين الصورة والخيال، يعد من المستحيل الوصول إليه مهما كانت السبل.

غير أن الوسيلة الحقيقة التي حققت تلك الأمنية المنشودة هي: وحدة الاتجاه، والهدف التي عبرت وبكل وسائلها التعبيرية، حتى تأخذ الكلمة مدلولها، وتجد الشخصية مكانتها، ويعود المجتمع إلى وتيرة حاول المستعمرون استئصال جذورها، دون جدوى.

وحق لك اليوم أيها الشعب الموريتاني أن تبتهج ويعلو صوتك مجددا.. صوت يصدع به ذووا الأقلام الهادفة، والأفكار النيرة، التي تعيش عصر العقول الآلية، وغزو الفضاء..

وصف للرحلات والتجارب التي مرّ بها بعض الشعراء الموريتانيين المعاصرين.ويطالعنا بعض الشعراء الموريتانيون بقصائد تعبر عن مواقف، أو أوصاف لحالات، أو مظاهر مر بها بعضهم في حياته، وجاءت أشعاره وصفا دقيقا لتلك الوقائع أو الأحداث، من ذلك قصيدة البيضاوي

البيضاوي بن أمانة الله (1307-1365هـ/1889-1945م)[1]

من روائع شعره قصيدته "رحلة إلى فرنسا" التي يقول فيها:

لا تَنس من شعركَ المختار عيبتَهُ ... وانشر إلى صحف التبليغ رحلتَه

إلى فَرنسا سَماء المجد ممتطيا ... ظهر الغطمطمِ ما ترتاب غيْلتَه

على سَفين يَجوب البحر مضْطربا ... كشارب يقتفي بالليلِ خلَّتَه

إذا تحدَّر فوقَ الماء مِن جبل ... سطا على جبل يَحتل قُلَّتَه

والماءُ يضرب أعلاهُ وأسفله ... وينثني حاملا في الْهزم ذلتَه

كقريةٍ من قرى التمْدين عامرةٍ ... من كل قسمٍ بها حيٌّ وحلتَه

يَعيش في جَوفها قومٌ قد انتهزوا ... من سائر الْحزم للإنسانِ غلتَه

من لاعبٍ صاحب يزجِي لصاحبه ... بين البنادقِ والأفراسِ حَملتَه

أو راقصٍ حائر في غصنِ غادتَه ... أو قارئٍ هادئ يجلو مِجلتَه

حتى انتهينا إلَى الأرض التي بزغتْ ... بها شموسُ الضحى تبدي أهِلتَه

وأنبتتْ من بهيج النبت باسقةً ... وأخرجت من نعيم العيش غلَّتَه

مَن جاء (باريز) واستجلَى روائعها ... ولم يَغضَّ من الطرفين وَيلتَه

فكَم قتيل بها يَمشي على مَهل ... لأنَّ عين المهى أحسنَّ قتْلتَه

ما أنسى في (فيشَ) والدُّكتورُ يردني ... من بعدِ ما جال في التَّفتيش جولتَه

يقول لِي قولةً فِي الطب صادقةً ... ما ألْطف الآمِي الناهي وقولتَه

إذا خرجتَ من الحمام منتعشًا ... إيَّاك والجؤذُر الأقنَى وصَولتَه

---

[1]- ولد حوالي سنة 1889 بمنطقة تكانت. هاجر مبكرا إلى المغرب وذاع صيته حتى تولى إمارة تارودانت في عهد مولاي عبد الحفيظ، وبها توفي 1945. انظر كابر هاشم، مرجع سابق، ص: 59.

يـا ورطَتـي والقِـوامُ اللـدن يُدهشـني والغصـنُ يعبـث بـي إن مـال ميلتَـه
أم كيـفَ يسـلَمُ مـن نبـل الغـرام فتـىً والأعـين الـزرقُ بـالأقواسِ قبلتَـه

وله أيضا:

تـذيبني نطُـق الأوتَـار مـن عـودِ غانيـةِ الغيـد مـن بـيض ومـن سـودِ
رنـاتُ إسـحاقَ أم أنغـامُ أنـدلسٍ أم بيـت لحمـان أم مزمـار داوُدِ!
إنْ حركّـت جنبـاتِ العـودِ أصـبُعُها يَجري مَع النفسِ مجرى الماء في العودِ
أو غَـردت فَعقـول القـوم ذاهبـةٌ كأنمـا شـربوا مـن بنْـت عنقـودِ
إن جئـت "مَيمـاةَ" واسـتنطقتَ آونـةً بـالله يـا بِنْـتَ عثمـانٍ بهـا عـودِي

وله أيضا:

قـد جـاءه نبـأٌ مَـا كـاد يَسـمعُه حتـى هَمـا بـدماء الحـزن مَدمعُـه
وزعزعـت صـبره البلـوى بأسْـطره يـا لأي مـا كانـت البلْـوى تزعزعُـه
ومـلٌّ مضـجعه إذ بَـات يقذِفـه قـضّ إلـى قَضـضٍ تجفـوه أضـلعُه
يذيعـه كاتـب شُـلّت أناملـه وجـاء مـن بُعُـدٍ بـرق يروعُـه
أو تـاجرٌ فـاجر تقـرى مطابعـه لا راج متْجـره لا دارَ مطبَعـه
والمـوتُ حـتم وكـل النـاسِ ذائقـةُ ولـيس يُـدرك عقـل أيـن موقعُـه
كـم طـائرٍ طـارَ آلافـا مُؤلفـة وكـان فِـي الأرض بالتيَّـار مصـرعُه
أو سـائرٍ سـار آلافـا مُؤلفـة فسـار يلهـو وسَـار الحـينُ يتبعُـه
أو سـخَّر البحـر مـلاحٌ فـدَان لـه فخـاضَ فـي البحـرِ فاختانتْـه أكرعُـه
نَعـى النعَـاة لنـا مـن طيبـةٍ "خضِـرا" هـذا هـو الـرزءُ أدهـاه وأفجعُـه
لا يقـبضِ الله هـذا الـدِّينَ منتزعًـا لكـن بقـبض كهـذا الحبـر ينزعُـه

خـــرقٌ بِحلـــة هـــذا الـــدينِ متَّســـع ... لا شـــيخ بعـــد أبـــي الزهـــراءِ يرفعُـــه
بـــدرُ التمـــام تغيـــب اليـــوم طلعَتُـــه ... والأمـــر للـــوارثِ البـــاقي نرجعُـــه
بالســـاحِلِ الأســـود الشـــرقي مغربِـــه ... ومـــن شَـــواطئ بحـــر الغـــرب مطلعُـــه
يَمـــر مـــرَّ العـــحاب فِـــي منازلـــه ... والغـــرب يعرفُـــه والشـــرق يمنعُـــه
لمـــا اســـتهل علـــى (شـــنقيط) صـــيِّبُه ... فاخضـــر مربعُـــه واخضـــر مرتعُـــه
أجرى ابنُ ما ياب في صحرائِها نَهَرًا ... مـــن الأحاديـــثِ والآيـــات منبعُـــه
حتـــى ابـــن زيـــدانَ رأسُ المـــالكي بِهـــا ... قـــد قـــام عـــن حُكمـــه بالفقـــه يرجعُـــه
لله مِنـــه ومـــن إلقائـــه ســـندًا ... قـــد كـــان فـــي مسْـــجد البطحـــاء يرفعُـــه
كَـــأن أحمـــدَ يملـــي فـــي أســـانِده ... عـــن ابـــن قطَّـــان والآلاف تســـمعُه
جَهابذ العِلـم فـي (فـاس) كَفاك بِهـم ... بحضـــرةِ الملـــكِ المســـماح ترفعُـــه
وهُـــمْ هـــمُ العلمـــاء اللهُ فضـــلهم ... عمَّـــن بمصـــرَ ومـــن بالشـــامِ تَجمعُـــه
إذا تجـــــرأ قيـــــدومٌ منـــــاظَرة ... فينبَـــري الشـــيخ بالبرهـــانِ يقنعُـــه
قـــومٌ أقـــاموا مـــن القـــرآن محكمـــةً ... وعنـــدهمْ مـــن بـــلاغِ الْخَـــتم مقطعُـــه
ومـــن أفـــانينِ أســـرار اللُّغـــى عجَـــبٌ ... والفـــرعُ مـــن أصـــلهِ الأقـــوى تفرعُـــه
تتبعـــوا الْحـــق فـــي قـــولٍ وفـــي عمـــلٍ ... فمـــــا ديـــــادِنُهم إلا تَتبعُـــــه
فكيـــفَ تعـــدلُ بـــاللائِي لَهـــا صـــخَب ... علـــى حيـــالٍ غـــواةِ العجـــم تطبعُـــه
تنـــوع العـــارُ فـــي كبـــرَى مراسِـــمها ... لا حبَّـــذا بلـــدٌ فيـــه تنوعُـــه
تـــراجُم حشـــرت لحنـــا وسفسَـــطةً ... كأنَّهـــا خـــرقٌ بـــالين ترقعُـــه
مـــا ثـــمَّ إلا بقايـــا فـــي أزاهِرهـــا ... منهـــا إلـــى الله جنـــبٌ لا تضـــيعُه
مـــا فـــيهمُ ثَـــم إلا آيـــسٌ أسِـــف ... يبكي على الدِّين مضْنَى القلب موجعُه
مَـلُوهمُ وسـلوا العبـاس عَـن خضـر ... ومـــا مـــن الْخُلـــقِ الأعلـــى يجمّعُـــه
لا عيْب فـي الشـيخِ إلا أنَّ صـاحبه ... إن زاغ يرشـــده أو جَـــاع يشـــبعُه

كـــأنَّني بأســـاطين الفطاحـــل بالنَّـــ ـــادي تُطـــأطِئ إذ كانـــتْ تشـــيعُه
يـــا راحـــلا عنـــد خيـــر الخلـــق مسكنُه وفـــي المدينـــة خيْـــرُ اللحْـــد مضـــجعُه
قـــد كُنـــتَ والله مفتيهـــا وعالِمَهـــا الحـــق ترفعُـــه والبطـــلُ تدفعُـــه
صـــبرت فيهـــا علـــى لأوائهـــا زمَنـــا لـــو مـــسَّ أصـــغره رضـــوى يُضعْضعُه
فلـــو رأى مالـــكٌ مـــا قـــد صـــنعت بِهـــا لقـــال هـــذا الـــذي قَـــد كنـــتُ أصـــنعُه
ســـلوا الحســـينَ المليـــكَ الهاشـــميَّ بِهـــا وآلِـــه عـــن زُلال كـــان يكْرعُـــه
لـــم أنـــس أيامنـــا عنـــد الفقيـــد بِهـــا الحـــقُّ نســـمعه والعلـــمُ نرضـــعُه
قـــال البَـــذيون مـــا للشـــيخِ فارقَهـــا ومـــا لـــه طـــابَ فِـــي (الأردنّ) موضـــعُه
فـــالله أخرجـــه مِنهـــا وأرجعَـــه لله مُخرجَـــه منهـــا ومرجعُـــه

محمدي بن أحمدْ فال عاش في الفترة مابين: (1318–1389هـ /1900–1969م)[1]

كما يطالعنا الشاعر محمدي ولد أحمد فال بقصيدتين تعتبران من أهم عيون الشعر العربي، حيث ضمن كلا منهما العديد من الأفكار والأساليب الأدبية الراقية ، إضافة إلى مواقف ومبادئ يرى الشاعر نجاح مستقبل موريتانيا في تبنيها، ذلك ما نستشفه من قصيدته:(لسان الضاد) التي يقول فيها:

لســـانُ الضـــاد يرمُـــق بـــالعُيونِ إلَيـــك اليـــومَ مـــؤتَمر العيـــونِ
فَفكـــر فـــي ديـــونِ الضـــادِ حلَّـــت أمُـــؤتَمر العيـــونِ فِ بالـــديونِ
فطَـــور الشـــعب كـــانَ علـــى منـــاخٍ تطَـــور بعـــده طـــورَ الجنـــونِ

[1] ولد حوالي سنة 1900 بولاية لعصابة. هاجر مبكرا إلى المغرب ومنه إلى المشرق. ثم عاد إلى البلاد في عهد الرئيس الأسبق المختار ولد داداه، وتوفي 1969 بكيفه. له ديوان شعر لم ينشر بعدُ. انظر محمد كابر هاشم، مرجع سبق ذكره، ص: 67.

لســـانُ الضـــاد فارغـــةُ الفـــؤادِ كفاهَـــا مِـــن جفَـــا (ويٌ ونـــونِ)
بريعـــان الشـــبابِ زهـــت وتاهـــتْ فَهـــي اليـــومَ يانعـــة الغصـــونِ
فرسِّـــمها وإن غضـــبَت (فرنســـا) وخـــلَّ النـــومَ يـــنْعم بـــالجفونِ
وخـــل رطانـــة هرِمَـــت وشـــابتْ فَهـــيٌ اليـــومَ موشـــكةُ المنـــونِ

وتطالعنا أيضا قصيدته الذائعة الصيت "بُحيْر الصَّفو"، التي ضمّنها الشاعر عصارة أفكاره، وما تحتويه من تجارب، وما علمته الأسفار والتجوال بين بلدان عديدة مر بها الشاعر، وما عاشت عينه ومشاعره من مناظر خلابة، إضافة إلى أماكن الإقامة التي قضاها مهاجرا في كل تلك الأصقاع التي طالتها أسفاره.

كل ذلك لم ينسه ربوع وطنه التي لا تساويها ربوع في عالمه الوجداني المعاش، الذي عبر عنه بأسلوب راقي، ودقة في التصوير، هذا ما يستطرده الشاعر في قصيدته الرائعة التي يقول فيها:

ألا يـا بُحيْـر الصَّـفو واللهـو والأنسِ عليـكَ سـلام الله يـا وجنـةَ الشـمسِ
عليـك سَـلام الله يـا مرتسعَ الصِّـبا ويـا مَجمـع الأحبـاب والأهـل والجـنسِ
ويـا ثَمـرةَ الألبـابِ يـا روضَـة الْهَنـا ويـا مُـذهب الآلامِ فـي الـروح والـنفسِ
ويـا موقِـد الأشـواقِ جئتـك ثانيـا ولكـن بـرق الشـيبِ يبـدو علـى الـرأسِ
ولـم تنسـني مصـرٌ وزهـوُ نعيمهـا ولـم يُنسـنِي منهـا سـريرٌ ولا كرسِـي
ولـم تنسـني سـعدى ولا البـينُ والنـوى ولم أنسَ لا أنسَى ولو كنتُ في رمسِي
ملاعـبَ للغـزلانِ حـول ربُوعهـا كسـاها نسـيجُ المـزنِ بـالورد والـورسِ
شـربنا مـدامَ الحـب فيهـا صـبابَةً عُهـود صـبانا الغـضّ والكـأسَ بالكـأسِ
ليـالِيَّ خُـودُ الحـي يغـرين بـالهوى يواصـلنَنا همسـا ويـبخلنَ بـاللمسِ
صَـبرنا وهاجَرنـاك فـي الشَّـرق تسـعةً وآبـتْ بنـا ذكـرى مواضـيكَ بـالأمسِ

فأبْنـا بِحمـد الله فـي بـارقِ الْمُنـى وكنّـا قبيـل اليـوم فـي حالِـكِ اليـأسِ
تمتـعْ فـؤادي بـالبحيْر وأهلِـه فليسَ عليك اليوم يا قلبُ من بأسِ

وله أيضا قصيدته (بكيت على الديار وسَاكنيهَا)، وهي قصيدة لا تقل أهمية من حيث الجودة وحسن السبك، وبيان الصور، وعذوبة الموسيقى الشعرية عن سابقتيها، وإن كان الشاعر يلاحظ في أسلوبه التأثر العميق بالحنين إلى ذلك الماضي الذي يعتبر فراقه نوعا من الماضي الصعب على النفس تناسيه أو تجاهله.

وهذا الماضي الذي عبر عنه الشاعر هو ما يذكي في ذاكرته الحنين إليه، والبكاء عليه كلما تذكره، وإن كان البكاء في حد ذاته لا يجديه هو ولا العويل عليه، يقول ابن محمدي:

بكيـتُ متـى عرفـتُ رسـوم دارِ وماءُ العـين منسـكبٌ وجـارِ
بكيـت علـى الـديار وسَـاكنيهَا وما يُجدي البكاءُ علـى الديارِ
ومـا يُجـدي البكـاء لمسـتهامٍ مصـابٍ بالهيـام والاذّكـارِ
ديـارٌ دارسـاتٌ كنـتُ فيهـا أجُـر علـى جَوانبهـا إزارِي
فـلا زالـتْ تباكرهـا الغَـوادي ولا بَرحـت تعلّـل بالسـوارِي
نهـاري لا يُزيـل ظـلامَ ليلـي ومـا لَيلِـي بـأظلمَ مـن نَهـارِي
علـى أرْض البُحيْـر وسـاكنيه ودورٍ فـي منازلـه قفـارِ
سـلامٌ كالشـمومِ وكـاللآلِي ونـورِ البـدرِ منكشـفَ الْخمـار
ونشـرِ المسـكِ مـا هبّـت شـمالٌ ومـا غَنّـت علـى طـربٍ جـوارِ

الخاتمـــة:

من خلال دراستنا لمظاهر العصرنة في الأدب الموريتاني المعاصر وآفاق تطوره، واستقرائنا للجوانب المختلفة المتعلقة بحياة وثقافة المجتمع واتجاهات شعرائه، استطعنا التوصل إلى ما يمكننا تسميته بالاستنتاجات الرئيسية التالية:

على الرغم من ندرة الدراسات التي تناولت هذا الجانب من الأدب العربي فإننا حاولنا استجلاء جوانب أساسية منه لا تزال بحاجة إلى مزيد من الاهتمام والبحث والاستقصاء.

من الأمور التي حددت مسيرة الأدب العربي الحديث، ما اتسم به التاريخ الحديث لأقطاره ، من أحداث تاريخية عاشتها بعض البلدان العربية منذ نهاية الدولة العثمانية، التي كانت وريثة للخلافة العباسية.

هذا بالإضافة إلى ما شهدته أجزاء أخرى من الساحة العربية كظهور دولة المرابطين في المغرب العربي، في القرن: {الخامس هجري، الحادي عشر ميلادي[1]}، والتي كان لها فضل نشر الإسلام في عدد من شعوب القارة الإفريقية.

كما أن الحياة الاجتماعية التي كان يعيشها المجتمع العربي قديما والتي تعتبر القبيلة والتنقل من أهم مركزاتها، إضافة إلى ما كانت تلك الحياة تزخر به من مقومات أساسية كالكرم، والأخلاق النبيلة، التي تركت بصماتها على توجه حركة الأخلاق والتربية ذات البعد الإسلامي المتميز، وهو ما لمسناه لدى العديد من الشعراء الموريتانيين.

حاولنا أن نبين دور بعض البلدان العربية في التصدي للغزو الفكري والعسكري

---

[1] - راجع: أبوه ولد أعمر: امحمد بن الطلبة اليعقوبي، دراسة تحليلية للجانب العلمي والأدبي من حياته، كلية التربية، جامعة الفاتح، طرابلس:1987م {رسالة ماجستير، لم تنشر}.، ص: 6.

للاستعمار، واتضح لنا أن ضعف آثار الغزو الفكري للمستعمر على بعض البلدان العربية والإسلامية، يعود إلى العمق المعرفي، والبعد الديني لدى الأفراد.

ولعل العامل التربوي كان له الإسهام الأكبر في هذا المجال، خاصة دور المحاظر{جامعات الصحراء}، أو ما يعرف ب:{الكتاتيب}.

فالكتاتيب لم يقتصر دورها على الجانب المعرفي فقط، بل إنه تجاوزها إلى وحدة المجتمع، وبناء الكيان العربي الإسلامي.

في دراسة حياة الشعراء، حاولنا أن نتحقق من التاريخ الأكثر ترجيحا لميلاد الشاعر، وهو ما قد تتضارب حوله الآراء، خاصة شعراء العصر الجاهلي.

كما حاولنا أن نبين نشأة كل شاعر من خلال الترجمة لحياته، وما أحاط بها من ملابسات، بما في ذلك دراسة المراحل المختلفة من حياته، حتى وفاته.

خلال دراسة آثار الشعراء، حاولنا التعرض لبيئات بعضهم، وانعكاسها على النشاط الأدبي للشاعر، من حيث المؤثرات النفسية والاجتماعية، التي تلعب دورا مهما في حياة الفرد، وتنعكس سلبا أو إيجابا على عطاءاته وأفكاره العامة.

وقد يلاحظ المتتبع لدراسة آثار الشعر الموريتاني أن أعمق تلك المؤثرات يرتبط بالمشاعر: {الاجتماعية، والدينية، والبيئية}.

وهذا ما تجلى في المراثي، والوقوف على الأطلال، وإن كان ذلك من موروثات الشعر الجاهلي، هذا إضافة إلى المدائح الدينية، كالمديح النبوي الذي نجده يطغى في بعض الأحيان على إنتاج العديد من الشعراء.

كما أن بعض الشعراء حاول أن يكون مبتكرا، وطريفا، واعتمد في ذلك على أسلوب التكرار، سعيا منه لإضفاء الطرافة على شعره.

وتعرضنا إلى الزوايا الفنية الأخرى التي اتسم بها بعض الشعراء الموريتانيين، بما فيها من: تشابيه، واستعارات، وصور، وأخيلة، وموسيقى.

حاولنا أن ندرس العاطفة، وارتأينا أنها متعددة لدى العديد من الشعراء، فهي عاطفة وجدانية، ودينية، وهو ما منح أشعارهم تلك الرقة والتأثير ،ورقة عواطف بعض الشعراء، جعلتهم يلجئون إلى مثل هذه البحور الشعرية.

1. الموسيقى الشعرية، والأجراس اللفظية التي تدفع في الشاعر حماسا متأججا، تنقاد وراءه العواطف، منيرة الدرب أمام صور بديعية الجمال.
2. وضوح الشاعرية، لدى بعض شعراء المعارضات، مع صدق المشاعر والأحاسيس لديهم.
3. اهتمام بعض من الشعراء، وانتقاله روحيا إلى شعراء آخرين ليسوا من عصره، ومحاولة ربطهم بالبنية الشعرية لهذا العصر، مع الانسجام والتذوق الكامل لمضامينه الأدبية والشعرية منها خاصة.

وأخيرا حاولنا أن نسلط الضوء فيه على أهم الفترات التي شهد فيها الأدب الموريتاني نهضة واسعة النطاق، وذلك منذ (أوائل القرن الثاني عشر وحتى مطلع هذا القرن)، كمرحلة من أهم مراحله الذهبية، والتي كانت نواة لما تلاها من الأدب الحديث مع بزوغ عصرنا الحاضر.

وهذا البحث (مظاهر العصرنة في الأدب الموريتاني المعاصر) الذي نقدمه اليوم . كمجهود ذاتي . آملين أن يقدم صورة شاملة عن الأدب الموريتاني، وتياراته القديم منها والحديث ،وأن يكون في المستوى المطلوب، كأبسط صورة نقدية يمكن تقديمها في إطار ضيق على الرغم من العناية والمثابرة اللتين كانتا مجالا له، بالإضافة إلى العمل الجاد والتحري في كل المصادر والمراجع ذات الصلة به.

والله نسأل أن يوفقنا لما فيه الخير والهدى، وأن يرشد أقلام أبناء أمتنا لخدمة تراثها العربي والإسلامي، حتى يستعيد هذا التراث قوته التي ولد ونشأ بها عند الأجداد وسلفهم الصالح.

المصادر والمراجع

- أبوه ولد أعمر: امحمد بن الطلبة اليعقوبي، دراسة تحليلية للجانب العلمي والأدبي من حياته، كلية التربية، جامعة الفاتح، طرابلس: 1987م {رسالة ماجستير، لم تنشر}.

- أخبار موريتانيا(نشرة إخبارية تصدرها سفارة موريتانيا)، عدد:تشرين الثاني، (نوفمبر)،1982، دمشق.

- د.على عشري زايد: استدعاء شخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلام، ط:1، طرابلس.

- كابر هاشم: أجيال القصيدة الموريتانية (1144-1430 هـ/ 1729- 2009 م)، دار الفكر، بيروت، ط1/ 2009.

- مجلة الفكر، تونس، السنة:23، العدد:2، نوفمبر 1977.

- مجلة الموقف الأدبي، العدد: 148 . آب (أغسطس)، دمشق،1983.

- محمد يوسف مقلد، شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، مكتبة الوحدة العربية، ط:1، يناير{كانون الثاني}، بيروت 1962.